الخطابةُ العربية في العصر الوسيط (656- 1213هـ) - دراسة في الموضوع والفن

أ.م.د. حسين عبد العال اللهيبي
كلية الفقه / جامعة الكوفة

Arab Oratory in Mediaeval Age

A Study in Subject and Technique

Asst.Prof.Dr. Hussain AbdulAl Al-Lihaiby
College of Jurisprudence/ University of Kufa

Abstract

Oratory is one of the literary arts that Man had known since the early history, it aims at affecting the audiences or listeners, so prophets used it as a device to defuse their instructions and attract people, with eloquence and rhetoric they change regimes and nations.

Arab literature had a long history in the development of this art till it reached the peak at the early beginning of Islamic era and the Omayyad era , yet it had weaken during the mediaeval age with which we are dealing in this paper.

The Mediaeval Age is the period from (656A.H = 1258 A.D), the year on which the Mongol had occupied Baghdad and ended the Abbasside caliphate, to(922 A.H = 1517 A.D) where Ottomans had occupied Egypt. Critics used to call this period as the Dark Age; the Arab nation had witnessed degradation and degeneration in all fields, the reason, as they said, was that the rulers were not Arab and did not understand the Arabic language, literary for them have no sense, those critics see the negative image of this age which could be right if we were talking about the Ottoman era.

In fact this is not fair for this age heritage and literary as well as its encyclopedic books in the different fields of knowledge which could not be neglected.

Hence oratory, in this age, has an important status where it had witnessed degradation and degeneration, so it must be studied fully to reveal its aspects, characteristic and the reasons of its degeneration. These reasons motivate the researcher to deal with this subject collecting information.

The study includes a preface and two chapters. The preface deals with the history of oratory. in the first chapter the types of oratory in Mediaeval Age the and its aspects, of its type at that time we have:- the religious oratory, the social and war oratory.

The second chapter is devoted to the technical study of oratory in the Mediaeval Age where the it studies the technical characteristics of it such on the levels of formation, style and contain.

المقدمة:

إنّ الخطابة من الفنون الأدبية التي عرفها الإنسان منذ عهدٍ مبكر، وهي تهدف إلى التأثير في نفوس السامعين واستمالتهم وإقناعهم؛ لهذا اتخذها الأنبياء أداةً مهمّة في نشر تعاليمهم، وشدّ الناس إليهم، ولم يستطيعوا أن يهدوا الأمم إلاّ بقوة المنطق، وبراعة البيان.

وقد قطع الأدب العربي شوطاً طويلاً في تطوّر هذا الفن حتى بلغ أوج عظمته من الرُّقي والازدهار في عصر صدر الإسلام وعصر بني أمية، ثم ما لبث أن أصابها الوهن في العصر الوسيط الذي نحن بصدد دراسة الخطابة فيه.

ويراد بالعصر الوسيط العصر الممتد من سنة (656هـ= 1258م) وهي السنة التي اجتاح فيها المغول بغداد، وأنهوا الخلافة العباسية، وينتهي هذا العصر سنة (1213هـ = 1789م)، وهي السنة التي استولى فيها نابليون بونابرت على مصر، وهو ما اصطلح النقاد على تسميته بعصر الفترة المظلمة، وعدّوه عصر انحطاط للأمة العربية في جميع مجالاتها؛ وحجّتهم في ذلك هو أن حكّام البلاد العربية في تلك الحقبة كانوا من الأعاجم، وهم لا يفهمون من اللغة العربية ما يفهمه العرب أنفسهم، ولا يتذوقون الأدب الذي أصبح في حالةٍ تكرب النفس، وتملأ القلب بالهم، وتشق على الطبع الأصيل، وتنبو عن الذوق السليم، وهؤلاء لا يرون إلاّ الصورة السيئة لهذا العصر.

وفي الحق أن في هذا تجنٍّ على تراث هذا العصر وأدبه، الذي خلّف لنا تراثاً ضخماً لا يستهان به من نتاج أدبي هائل، ومن كتب موسوعية في شتّى ميادين العلم والمعرفة.

ومن هنا فإنّ الخطابة في هذا العصر لها أهميتها من حيث ما أصاب بعض ضروبها من الخمول والفتور بسبب الإهمال الذي تعرّضت له، وضياع قسم لا يستهان به من خطب هذا العصر؛ لذا كان لا بدّ لهذه الخطابة من دراسة وافية لاستجلاء خصائصها وسماتها؛ فهي ما زالت بحاجةٍ إلى المزيد من العناية والدرس والتأمل، وهذا ما دفعني إلى اختيارها موضوعاً، فانصبّ اهتمامي على جمع مادة البحث في جملة من المصادر الأدبية والتاريخية.

وجاءت الدراسة في تمهيدٍ وثلاثة مباحث تناولنا في التمهيد حدَّ الخطابة وتاريخها، في حين تطرقنا في المبحث الأول إلى وضع الخطابة العربية في العصر الوسيط وأبرز أعلامها، أما المبحث الثاني تناولنا فيه أنواع الخطابة العربية في العصر الوسيط وأغراها. وجاء المبحث الثالث في الدراسة الفنية للخطابة العربية في العصر الوسيط، فيما يتعلّق بأبرز السمات والخصائص الفنية لهذا الفن من حيث الصياغة والأسلوب والمضمون.

التمهيد

(حدُّ الخطابة العربية وتاريخها)

فنُّ الخطابة نمط من أنماط النثر الفنّي يعتمد مشافهة الجمهور، ويهدفُ إلى الإقناع والاستمالة والتأثير في نفوس السامعين، وقد وجد العربُ في الخطابة خيرَ وسيلةٍ للحضِّ على القتال، وإثارة الحماس، واجتلاب النفع، واتقاء الشرّ، ومقارعة الظلم، وحقن الدماء؛ ولهذا عنوا بها عناية فائقة، فهي (من مستودعات سرّ البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، وبها يتميّز الكلام، وبها يخاطب الخاص والعام)[1].

وقد أملت الحياة القاسية على عرب الجاهلية نشوب الخصومات والنزاعات والحروب، وكانت الحروب والغارات من الظواهر البارزة في حياة عرب الجاهلية؛ لذلك ازدهرت الخطابة عندهم؛ لارتباطها بواقعهم ومصيرهم؛ فكانت سلاحهم الذي يصحبهم في حربهم وسلمهم؛ فهي في الحرب تحضّهم على إيقاظ الهمم، وشحذ العزائم، وإثارة الحماس، وفي السلم تدعوهم إلى المبادرة بالصلح، وإطفاء النائرة، وحقن الدماء.

وتزدهرُ الخطابةُ عموماً إبّان الأحداث السياسة، والتطورات الفكرية، ولمّا كان الإسلام ثورةً فكرية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية..... فلا بدَّ أن يكون له أثره في الخطابة؛ لذلك ازدهرت الخطابة في هذا العصر لحاجة الإسلام إليها

---

[1] صبح الأعشى: 253/1.

بوصفها أداةً مهمّة، وسلاحاً قوياً، استعانَ بها الإسلام في نشر مبادئه وتعاليمه، يقول أبو هلال العسكري (والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين؛ لأنّ الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجُمعات والجماعات، وتشتملُ على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام رعيته لئلا تُدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله . عزّ وجل . من ذلك في كتابه إلى غير ذلك من منافع الخطب)[2].

وكان للقرآن الكريم أثره البالغ على الخطابة، إذ بعث في نفوس الخطباء حسّاً جمالياً دفعهم إلى مجاراة أسلوبه، فأخذوا يوشحون خطبهم بالآيات تمثلاً وإشارة، ووضعها بالمواضع الملائمة لها من الخطبة، يقول الجاحظ (وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي كلام يوم الجمع آي من القرآن، فإنَّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع، وصارت الخطبة التي تخلو من بعض آي القرآن تعرفُ بالشوهاء[3].

وإذا تحوَّلنا إلى عصر بني أمية وجدنا الخطابة بجميع ضروبها من سياسية وحفلية ودينية وحربية تزدهر ازدهاراً عظيماً، وقد أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة في عصر بني أمية إذ كانت للعرب سلائقهم اللغوية، ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية، والاختلاط بشعوبها، وكانوا من بلاغة المنطق، وحسن البيان، وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلّمهم أن يبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع[4]، فضلاً عن التعصب القبلي الذي دأب الإسلام على إغراقه، وإخماد جذوته فإنّه عاد يستعرُ ويشتدُّ أوارُهُ من جديد في عصر بني أمية الذي اتسم بالعصبية (عصبية للعرب عامة ضدّ الأعاجم والموالي، وعصبية لليمنية على القيسية، وعصبية بني أمية على بني هاشم، وعصبية القبائل الموالية لهم على المناوئة كعصبية كلب وتغلب على قيس)[5].

وما إن تسقط دولة بني أمية سنة 132هـ وتقوم على أعقابها دولة بني العباس حتّى تشتدُّ الفتن، ويحتدمُ الصراع بين هذه الأحزاب . من علويين، وأمويين، وخوارج . وأصحاب السلطة من بني العباس الذين سعوا إلى قمع هذه الأحزاب بكلِّ ما أوتوا من قوة وبطش.

وكان لا بدّ للخطابة . في العصر العباسي الأول ـ التي ظلت محتفظة بمقوّمات بقائها ونموِّها ونشاطها أن تزدهر، فهذا العصر هو امتداد للعصر الذي سبقه من حيث بناء الخطبة وشدّة إحكامها، فضلاً عن كثرة النصوص التي وصلت إلينا عن هذا العصر، وكثرة الخطباء المصاقع المفوهين الذين شهروا بالفصاحة والبلاغة، وإجادة القول، وحضور البديهة، والقدرة على الارتجال.

وما إن ينتهي العصر العباسي الأول حتى يدبّ الضعف والاختلال في بعض ضروب الخطابة بسبب ما تعرّضت له من الإهمال، وارتفاع منزلة الشعر الذي أخذ يتنامى دوره ليحلّ محل الخطابة.

ولا نكاد نصل إلى العصر الوسيط (656– 1213هـ) حتى تختفي ضروبٌ من الخطابة العربية كالخطابة السياسية، والجهادية، ولم يبق إلاّ شذور من الخطابة الاجتماعية؛ وفي هذا ما يدلّ على ضياع قسم كبير من خطب هذا العصر.

أما الخطابة الدينية فقد ظلّت مزدهرة طوال هذا العصر؛ لما لها من أثر كبير في حياة المسلمين فمن خلالها يستطيع الخطباء أن يوجِّهوا الناس إلى تقوى الله وحبّه وطاعته وخشيته، والترغيب في الآخرة، والتزهيد في الدنيا.

---

[2] الصناعتين: 136.

[3] نقد النثر: 95.

[4] ينظر: تاريخ الأدب العربي، د. شوقي ضيف: 2/ 405.

[5] أدب السياسة: 25.

المبحث الأول

وضع الخطابة العربية في العصر الوسيط وأبرز أعلامها

سبقت الإشارة إلى أن ضروباً من الخطابة العربية كالخطابة السياسية والخطابة الجهادية في العصر الوسيط قد اختفت وتلاشى ظلّها؛ وكثيراً ما نقبنا عن نصوص لها يمكن الاستشهاد بها، والتدليل على وجودها، إلاّ أننا لم نجد لما نبتغي أثراً، ويبدو أن الحاجة إليها قد انتفت؛ لارتفاع منزلة الشعر الذي قام بدور خطير في إذكاء الصراعات، وإثارة الحماس، وشحذ العزائم، على عكس ما كان عليه في العصور السابقة، إذ كانت الاستعانة بالخطابة خير وسيلة للحضِّ على القتال، والترغيب فيه، وإثارة العواطف، وتفنيد حجج الخصم.

ومن هنا ارتفعت منزلة الشعر حيث كانت الحاجة إليه في تأييد الملك، وتعزيز السلطات، لقد أدرك الشعر في هذا العصر حظّه المرجو من النضج والازدهار، فأخذ يصوّر الحياة في شتى مجالاتها؛ السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، ولعل ارتفاع منزلة الشعر في هذا العصر إنما يعود إلى عناية سلاطين هذا العصر وملوكه بالشعر، وتشجيعهم له، ونثر الأموال على الشعراء الوافدين إليهم، فمضى الشعراء يسطّرون أمجادهم، ويخلّدون آثارهم، وكانوا يصطحبونهم في حلّهم وترحالهم، ولاسيّما في حروبهم، فصوّر الشعراء تلك المعارك بكلّ جزئياتها الدقيقة؛ لذا يعدّ شعر هذا العصر وثيقة تاريخية مهمة يمكن الاعتماد عليها؛ على أن ذلك ترك تأثيره السلبي في الخطابة بنوعيها: السياسية والجهادية وبهذا بطلت الخطابة السياسية والجهادية وتقوّضت أركانها ومقوماتها، وانعدمت عواملها ومحفزاتها؛ فلم يعد مبرر لوجودها، ما دام الشعر يؤدّي الغرض.

وكان من بين الأسباب التي أدّت إلى ضعف الخطابة العربية في هذا العصر عموماً أنه لم تعد للعرب سلائقهم اللغوية المعهودة من بلاغة القول، وحضور البديهة، وقوّة العارضة، وسرعة الخاطر؛ لفساد ألسنتهم، إذ لم تعد سليمة فصيحة فقد أصابها كثير من التشوهات القولية؛ فحرمت الفصاحة، وفقدت ملكة الارتجال، ومالت إلى الإسفاف؛ ولعلّ مردّ ذلك إلى انتشار العجمة واستفحال أمرها، بسبب اختلاط العرب بغيرهم من شعوب الأرض؛ فضلاً عن سيطرة الأعاجم – ومعظمهم من الأتراك – على زمام الأمور، ومقاليد الحكم، وكانوا لا يحسنون اللغة، ولا يفهمون غوامضها.

وإذا كانت الخطابة السياسية والجهادية قد بطلت في هذا العصر، ولم يعد لهما أدنى تأثير، فقد ظلت الخطابة الدينية مزدهرة طوال هذا العصر؛ لاحتفاظها بمقوّمات بقائها ونموّها ونشاطها، ولما تضمّنته من مواعظ كالتحذير من الدنيا، والانسياق وراء مفاتنها، والتذكير بالموت، ووحشة القبر، والاستعداد لليوم الآخر، والتمسك بتقوى الله، مما له أعمق الأثر في النفوس.

وثمّة باعث آخر ساعد على ازدهار الخطابة الدينية هو كثرة الخطباء المصاقع في هذا العصر الذين شهروا بالوعظ والتذكير، وتزخر كتب التاريخ والتراجم بأسماء طائفة كبيرةٍ منهم، ممن تألّق نجمهم في هذا العصر، وأكثرهم من خطباء الجوامع، إلاّ أنّ ما وصل إلينا من خطبهم يكاد لا يتناسب مع عددهم، ومن المحقّق أنّ عدداً غير قليل من خطبهم قد فقد أو ضاع؛ لأسبابٍ تتعلّق بطبيعة نقله أو روايته....

ومن مشاهير الخطباء في هذا العصر: ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندري: (ت 688هـ) قاضي الاسكندرية، وخطيبها وفقيهها الفاضل، وأديبها المفتق الكلام، والمشقق به ألسنة الأقلام[6].

ومنهم: تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف قاضي القضاة المعروف بابن بنت الأعز (ت 695هـ)، وفي خُطَبِه يقول ابن فضل الله العمري (أينعت بها أعواد المنابر وأورقت، وأضاءت في المسامع وأشرقت)[7].

---

[6] مسالك الأبصار: 13/365–366.

[7] المصدر نفسه: 13/370.

ومنهم: تقي الدين محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد (ت 702هـ) له ديوان خطب مفرد معروف[8]، وهو من الخطباء المصاقع الذين (لا يشقُّ له غبار، ولا يجري معه سواه في مضمار)[9]. وفيه يقول أبو الحسين الجزّار، وقد سمعه يخطب بقوص والناس من حوله يبكون[10]:

يـــا سِّـــيدَ العُلمـــاءِ والشُّـــعراءِ والـــ أدَبَـــــاءِ والخُطبـــــاءِ والحُفَّـــــاظِ

شَـــنَّفْتَ[11] أسْـــماعَ الأنـــامِ بِخُطبَـــةٍ كسَـــتِ المَعَـــاني رَوْنَـــقَ الألفـــاظِ

أبكـــتْ عُيُـــونَ السَّـــامِعين فُصُـــولُها فزكـــتْ علـــى الخُطبـــاءِ والوعَّـــاظِ

وعَجِبْـــتُ مِنْهـــا كيـــفَ حـــازتْ رقـــةً ج مَـــعْ أنَّهـــا فـــي غـــايةِ الإغـــلاظ

ســـيَقُولُ قـــوْمٌ إذا رَأوْكَ خَطِيـــبَهُمْ: أنْسَـــيْتَنا قُسَّـــاً بسُـــوقِ عُكـــاظِ

ومن مشاهير خطباء هذا العصر أيضاً: محمد بن يوسف الجزري شمس الدين الخطيب (ت 711هـ)، ولي خطابة جامع ابن طولون، وقد أثر عنه أن له ديوان خطب[12]، إلاّ أنه لم يصل إلينا شيءٌ من خطبه.

ويعدُّ القاضي جمال الدين الغزاوي المصري (ت 719هـ) أحد الخطباء الذين لا يبارون، قال عنه ابن فضل الله العمري (وخطب ببعض الجوامع وخلب كلّ المسامع، وأعاد العيدان أغصاناً، والأعلام خرصاناً، ما علق بالقلوب أرساناً)[13].

ومنهم بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الطيبي (ت732هـ) كان قاضي قضاة مصر، قال عنه العمري: كانت خطبه تدخل القلوب طواعية[14].

ومنهم شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي (ت 725هـ) الذي نعت بقدوة الكتّاب، وشيخ الخطباء، بل يعدّ صائلاً في حومة البراعة، مجلياً في حلبة أرباب اليراعة[15]، وفيه وفي خطابته يقول صفي الدين الحلي[16]:

كـــم خُطبـــةٍ لـــكَ راعَ الخطـــبُ موقعهـــا وكـــــم تُقُلِّـــــد منـــــهُ الـــــدّهر تقليـــــدُ

ومنهم محمود بن محمد بن عبد الرحيم المعروف بابن خطيب بعلبك (735هـ) كان من الخطباء المعدودين وقد وصفه ابن حجر: (كان يخطب جيداً بنغمة حسنة)[17].

---

[8] طبقات الشافعية: 230/9.

[9] المصدر نفسه: 230/9.

[10] الطالع السعيد: 594.

[11] شنّف السمع: أطربه وآنسه.

[12] الدرر الكامنة: 183/4.

[13] مسالك الأبصار: 373/13.

[14] مسالك الأبصار: 376/13.

[15] تذكرة النبيه: 153.

[16] ديوان صفي الدين الحلي: 358.

وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (739هـ) ممن ولي خطابة دمشق، وكان خطيباً لسناً، وعلى الرغم من شهرته الخطابية إلاّ أنه لم يصل إلينا من خطبه شيء.

ولا نغفل عن محمد بن أحمد بن خلف المطري الخطيب المعروف (ت 741هـ)، الذي كان لسان خطابة وخطاب، وإنه طالما أبدع من الخطب، ما فطر وأبدى العجب[18].

ومنهم محمد بن عبد اللطيف بن يحيى السبكي (ت 744هـ)، كان خطيباً لا يبارى، وعلى الرغم مما حظي به من شهرة خطابية، فإنه لم يصل إلينا من خطبه سوى قطعة من خطبته المعروفة بالخطبة الفائقة التي ألقاها يوم تدريسه بالمدرسة الركنية بمصر[19].

ولا ننسى شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن المنبجي (ت 746هـ) خطيب المزة، وكان معجباً بخطب ابن نباتة، فكان يحفظها ويلقيها على الناس أيام خطابته[20].

ومن الخطباء المصاقع يوسف بن سلمان الطائي الخطيب جمال الدين النابلسي (ت 775هـ) كان يخطب بدمشق – وقد عُدَّ – (فريد خطبائها، ووحيد أدبائها)[21].

ومنهم محمد بن علي الحلبي ناصر الدين الخطيب (ت 789هـ) كان يخطب بجامع حلب، وكان – كما يقول ابن حجر – خطيباً بليغاً مفوّهاً[22].

ومنهم يوسف بن سليمان جمال الدين بن الخطيب (ت 814هـ)، وصفه ابن حجر بأنه (كان مليح النادرة، سريع الجواب، يخطب من إنشائه)[23].

وكان أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ) أحد الخطباء المعدودين، وله ديوان خطب معروف[24]، لم نقف عليه.

وكذلك زكريا بن محمد زين الدين الأنصاري (ت 926هـ)، وكان ممن يجيد الخطابة بالورق، وله ديوان خطب يعرف بالتحفة السنية[25]، وهو مجموع خطبه التي كان يكتبها ويلقيها بالجامع.

ونكتفي بهذا القدر من الخطباء، إذ لا طائل من تعقّب أسمائهم، وهذا القدر كافٍ في الدلالة على إسهام أولئك الخطباء في تطوّر الخطابة العربية والارتقاء بها في هذا العصر، وقدرتهم على الإقناع والتأثير في نفوس السامعين بما يغمر قلوبهم، ويثير مشاعرهم.

---

[17] الدرر الكامنة: 205/4.

[18] مسالك الأبصار: 331/13–332.

[19] طبقات الشافعية: 178/9–179.

[20] الدرر الكامنة: 98/1.

[21] مسالك الأبصار: 334/13.

[22] الدرر الكامنة: 54/4.

[23] الدرر الكامنة: 280/4.

[24] التبر المسبوك: 118/2.

[25] الكواكب السائرة: 198/2.

المبحث الثاني

أنواع الخطابة العربية في العصر الوسيط وأغراضها

إنَّ ما وصل إلينا من خطب هذا العصر قليلة لا تكاد تبل الريق؛ مع كثرة خطباء هذا العصر الذين لا تتناسب شهرتهم الخطابية مع ما وصل إلينا من خطبهم، فهذا أحمد بن المنير الطرابلسي (ت 683هـ) له ديوان خطب كما يقول ابن شاكر الكتبي[26]. ومثله تقي الدين محمد بن دقيق العيد (ت 702هـ) الخطيب المعروف الذي كان (له ديوان خطب مفرد معروف)[27]، وكذلك أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ) له ديوان خطب معروف[28]، ومع هذا كلّه فإننا لا نعلم عن دواوينهم شيئاً؛ وهذا يعني أنّ قسماً كبيراً من خطب هذا العصر قد فقد أو ضاع؛ لأسباب تتعلق بطبيعة روايتها أو نقلها.

ومهما يكن من أمرٍ فإن ما وصل إلينا من خطب هذا العصر قلّة قليلة لا تتعدّى أن تكون خطباً دينية، وقسماً منها خطباً اجتماعية، إلاّ أن الخطابة الدينية لها النصيب الأوفر من الرقي والازدهار؛ لحاجة الناس إليها، ولما تضمّنته من مواعظ تذكر بالتقوى والعمل الصالح، والتخويف من وحشة القبر، وأهوال القيامة. وأول ما نبدأ به من ضروب الخطابة:

أولاً – الخطابة الدينية:

الخطابة الدينية (تلك التي شرع الإسلام لها وقتاً معلوماً في يوم الجمعة والعيدين، وفرض الاستماع لها، وكانت الأداة المعبِّرة في المناسبات الدينية، وفي كلِّ أمرٍ جامع)[29]،(والمشتملة على المواعظ الوازعة، والذكرى النافعة، المنبّهة للساهي الغافل، الموقظة للاهي الذاهل، العائدة بترقيق القلوب، وكشف ما غشيها من زين الاغترار، والإخلاد إلى هذه الدار، والحضّ على الاستعداد لمنزلة القرار)[30].

وللخطابة الدينية أثرٌ كبير في حياة المسلمين؛ لما (تشتمل عليه من وجوه الخير، وما تتضمّنه من تمجيد الله تعالى وتوحيده، والثناء عليه، والترغيب في الآخرة، والتزهيد في الآخرة، وقدح الهمم في طلب الثواب، والورع عن احتقاب ما يوجب العقاب)[31].

ومن خلالها يستطيع الخطباء أن يوجِّهوا الناس إلى تقوى الله وحبّه وطاعته وخشيته، بما يغمر قلوبهم ومشاعرهم؛ لأنها صادرة عن قلوبٍ مفعمة بالصدق والإخلاص (والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين؛ لأنَّ الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام رعيته؛ لئلاّ تُدرس قلوبهم آثار ما أنزل الله – عزّ وجل – من ذلك في كتابه)[32].

ويجدُ الخطيبُ في هذا اللون من الخطابة متنفساً له في إثارة عواطف السامعين، وترغيبهم في الخير، وتنفيرهم من الشرِّ، بما يغمر قلوبهم ومشاعرهم؛ لأنّها (تصلهم بالخالق . سبحانه وتعالى . وتعلو بهم عن الأرض إلى السماء، وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، فالخطيب يتكلم من قبل الله، والموضوع ديني وروحي، وثمرة الخطبة سعادة الفرد والمجتمع، وتمجيد الله وطاعته، وابتغاء الخير)[33].

---

[26] فوات الوفيات: 150/1.

[27] طبقات الشافعية: 230/9.

[28] التبر المسبوك: 118/2.

[29] أدب الخطابة الدينية: 23.

[30] مواد البيان: 60.

[31] المصدر نفسه: 61.

[32] الصناعتين: 136.

[33] فن الخطابة: 105.

وتقوم الفكرةُ العامة في هذا اللون من الخطابة الدينية على الوعظ والتذكير، والركون إلى طاعة الله تعالى، والتمسك بتقواه، والتعلّق بتعاليم القرآن الكريم، إلى غير ذلك من المعاني التي تسهم في إبراز الصورة التي يريد الخطيب عرضها وإيضاحها للناس، ولا شكَّ إنَّ الوعظ والتذكير له أثره الواضح، ومكانته البارزة في حياة المسلمين، فهو من دعائم الإسلام؛ لهذا ظلّت الخطابة الدينية مزدهرة في هذا العصر؛ لما تضمّنته من مواعظ تذكر بالموت واليوم الآخر، والحضّ على العمل الصالح، والتمسك بأهداف الإسلام، والعبرة بما وقع للأمم السالفة.

إن ما تنطوي عليه خطب هذا العصر من المعاني والموضوعات لا يعدو أن يكون تذكيراً بالموت، وما ينتظر الإنسان من عقاب أو ثواب، أو تخويفاً من وحشة القبر وأهوال يوم القيامة

ومن عادة هذه الخطب أن تلقى في أيام الجمع، والعيدين، والاستسقاء، وفي موسم الحج، ومن جيد الخطب خطبة بدر الدين الطيبي (أيّها الناس اعتدُّوا للرحلة فالسفر بعيد، واشتدُّوا قبل الدخول في الرحلة فالأمر شديد، واعتبروا فالعبر في كلّ يومٍ تزيد، وبادروا بالعمل، وحاذروا مساورة الأجل، فالموت أقرب من حبل الوريد، وانتهزوا الفرصة قبل يوم الوعيد)[34].

وتمضي الخطبة على هذا النسج في تصوير الزهد في الدنيا، والإعراض عنها، وتذكر الموت، والاستعداد لليوم الآخر، وانتهاز الفرصة قبل فوات الأوان، وفي غمرة هذا الوعظ، وفي لحظةٍ آنية يعيشها الخطيب يذكر الناس بمن كان قبلهم ممن سكن هذه الدنيا ثمّ رحلوا عنها، وقد تعفّت آثارهم، ومحقت أخبارهم، بعد أن كانوا فيها فكهين، فما أسرع ما تنكرّت لهم الدّنيا، وقلبت لهم ظهر المجن، فانتقلوا من قصور واسعة إلى قبور ضيقة: (تذكروا رحمكم الله هل من خلد من كان قبلكم في هذه الدنيا، لا والله لقد عفت من بعدهم الآثار، ولم تبق إلاّ روايات وأخبار، إن الحياة الدنيا لعبٌ ولهو، وإن الآخرة هي دار القرار، تأمّلوا كيف نقلوا من القصور إلى القبور، وحكم عليهم العدلُ الذي لا يجور، جرى القلم على الأمم بما حكم في الكتاب المسطور).

ويقف الخطيب حيران يتساءل عما جرى لهم، وما حلّ بهم: (أين الأمم الخالية ؟، أين أصحاب الهمم العالية؟).

ويجيب الخطيب على ما ألقاه من أسئلة جواباً مشوباً بلوعة الأسى أن أولئك قد أفنتهم الدهور، وأبلتهم القبور (صاروا والله عظاماً بالية، تغيّرت منهم المحاسن وزالت، وذهبت عنهم تلك النظارة ومالت، فاتقوا الله واحذروه، وقدّموا بين أيديكم ما تجدوه).

ومن محاسن الخطب خطبة تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب وهي من خطب الجُمَع: (ابن آدم أفق لانقضاء مدّتك، فما بقي إلاّ القليل، وأرِقْ عليها دماء مقلتك، فإنّ الدموع لا تشفي الغليل، وابقَ ما بقيَ من يعينك على الأسف فيما سلف والحزن الطويل، وحقّق في نفسك وطويّتك إنّك في الدنيا كعابر سبيل، واشفق على نفسك من حلول منيتك، وما تأهب إلاّ تزوّدت للرحيل، وألصق خدّك بالتراب لأجل خطيئتك كما يفعل الخاضع الذليل، وأخلق بك باكياً على بليّتك، ومن أحقّ منك بالبكاء والعويل، وثق بأنّك إن صدقت الله في سريرتك أعانك الله وأغاثك بكرمه الجزيل، فمزّق أثواب لهوك وغفلتك رداء عفوه الجميل، وصدّق بعقوبتك ومثوبتك لتقف مع التحريم والتحليل، وحدّق بعين قلبك وبصيرتك لتعتبر بمن عبر من الأمم جيلاً بعد جيل، أما أدرك الموت من سلف قبلك من القرون ؟...)[35].

في هذا النص يحذر الخطيب من الدنيا وزخرفها ومتعها، ويهوّن من شأنها ويحقر من أمرها، وأولى بالمسلم أن يتبّع الحق ويعيش لأجله، ويتمسّك بالتقوى، والعمل الصالح، وأن يتنبّه إلى أن الدنيا فانية لا خلود فيها، وأنّ أيامه فيها محدودة، وأنفاسه فيها معدودة، ومن بعدها الموت الذي ينتظره، ولن ينفعه شيءٌ إلاّ ما قدّمت يداه.

---

[34] مسالك الأبصار: 377/13.

[35] المصدر نفسه: 370/13.

ثانياً – الخطابة الاجتماعية (الحفلية):

يراد بالخطابة الاجتماعية (الخطب التي تلقى في المواسم الكبار والمحافل العظام، وفي مجالس الخلفاء والملوك والأمراء، وفي الأندية العامة والخاصة؛ لغرض من الأغراض التي تتعلّق بالحياة الاجتماعية)[36].

وإذا كانت هذه الخطب تعبِّر عن الظواهر الاجتماعية وما يتعلّق بأحوال المجتمع فإنّها لا تقتصر على موضوعٍ واحد، فقد تعددت مضامينها، وتنوّعت أغراضها؛ تبعاً للظروف والمناسبات الداعية إليها، ومن هذه المضامين التي تناولتها:

(1) خطبة النكاح (الصداق):

لم تكن هذه الخطب من مستحدثات هذا العصر، فقد عرفها العرب منذ عصر الجاهلية، والفكرة العامة في هذه الخطب هو إقناع ذوي الفتاة بمن يرغب في الإصهار إليهم، ومهمة الخطيب في هذه الخطب هو أبراز مزايا الخاطب وفضله؛ لهذا صارت خطبة النكاح بحاجةٍ إلى تفصيل وإطناب، إذ ليس أمام الخطيب إلاّ أن يفصّل في فضائل الخاطب وصفاته الخُلقية، وأصبح من سننها أن يطيل الخاطب في خطبته، ويقصّر المخطوب إليه في إجابته، قال الأصمعي (كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حرمته الإطالة، لتدلّ على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز؛ ليدلّ على الإجابة)[37].

وقد جرت العادة أنه إذا تزوّج سلطان أو أحد من أولاده، أو أحد من الأمراء الأكابر، وأعيان الدولة، أن تلقى خطبة صداق بهذه المناسبة، تختلف من حيث طولها وقصرها بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك، وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال، ومن جيد خطب النكاح في هذا الباب خطبة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر (ت 692هـ) للملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي الذي أصبح من بعده سلطاناً، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ((وبعدُ؛ فلو كان اتصال كلّ شيءٍ بحسب المتصل به في تفصيله، لما استصلحُ البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله، لكن ليتشرّف بيت يحلُّ به القمر، ونبتٌ يزوره المطر، ولسان يتعوّذ بالآيات والسور، ونثار يتجمّل باللآليء والدرر؛ ولذلك تجمّلت برسول الله – صلّى الله عليه وآله وسلّم – أصهارُهُ وأصحابُهُ، وتشرّفتْ أنسابهم بأنسابه، وتزوّج – صلّى الله عليه وآله وسلّم – منهم، وتمّت لهم مزيّة الفَخار، حتّى رضوا عن الله ورضي عنهم))[38].

ويستطردُ الخطيب في هذه الخطبة إلى الحديث عن شرف المخطوب وفضائله (فخطب إليه أسعد البرية، وأمنع من تحميها السيوف المشرفية، وأعزّ من تُسبل عليها ستور الصون الخفية، وتضرب دونها خدور الجلال الرضية، وتتجمّل بنعوتها العقود، وكيف لا ؟، وهي الدرّة الألفية).

وتمضي الخطبة على هذا النحو من حسن النسج، ومتانة التأليف، فضلاً عن الدِّقة في انتقاء الألفاظ، وتأنُّق الخطيب في خطبته باعتماده السجع الطويل الفقر.

ومن جيد الخطب خطبة صداقٍ لشهاب الدين الحلبي (ت 725هـ) أكد فيها أهمية الزواج ودوره في تقريب الأباعد، واتصال النسب، وبقاء النسل، يقول: [(اقتربت به الأباعد، واتصلت به الأنساب، اتصال العضد بالساعد، وأحيى الله به الأمم، وقد قضى حينهم، وجَمَعَ به بين متفرّقين **(لو أَنْفَقْتَ ما في الأرض جميعاً ما أَلّفتَ بين قلوبِهِم ولكنّ اللهَ أَلّفَ بينهم)**][39].

ومن عيون الخطب التي وصلت إلينا من هذا العصر خطبة زين الدين بن الوردي (ت 749هـ) وقد خطب بعض بني النصيبي على بنت عمّه، فقال – بعد أن حمد الله وأثنى عليه – ((فإنّ أولى ما بادر إليه أولو الأحلام، وتنافس فيه كرام

---

[36] الخطابة الحفلية في العصر الأموي: 2.

[37] زهر الآداب: 478/2.

[38] صبح الأعشى: 342/14–343.

[39] حسن التوسل: 324.

الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكثير الأمة متضمّناً، ولفضيلة العاجل والآجل نافعاً نفعاً بيّناً، وهي سنّة النكاح التي عظمت بها المنّة، وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليه يد السنّة، ولاسيّما بنات العمّ التي أرشدت قصّة البتول – عليها السلام – إليها، وحسن أن يتلى لها بطريق الأولى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتِسْكُنُوا إِلَيْهَا) [الروم: 21]....))[40].

لقد أكد الخطيب في هذا النص أهمية الزواج؛ لأن الزواج سنة كشف عنها رسول الله – صلّى الله عليه وآله وسلّم – بقوله (النكاح سنّتي ومن رغب عن سنّتي فليس منّي). كما إنه صيانة للمسلم والمسلمة من الوقوع في مصائد الشيطان، ومزالق الهوى، وقد استعان بالآية الكريمة في الحث على الزواج، والترغيب فيه.

وتمضي الخطبة على هذا النحو من الهدوء النفسي، ولين في الخطاب، ينتقل بعدها الخطيب إلى تقوية أواصر ذوي القربى باقتران ابن العم من ابنة عمّه، فهو أولى بها من غيره، وهي أليق به من غيرها؛ لما بينهما من وشائج القربى، وصلة الرحم، وتشابه في الصفات والخصائص، والبعد عن روح التعالي لاسيما في الزواج غير المتكافئ، يقول: (فإنّ بنات العمّ أجدى بالصحبة وأجدر، وأوفى بالمودّة وأوفر، وأوصى إلى العهد وأصبر، ولاسيّما من حازت كرم الأوائل والأواخر، وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر، وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر، وإذا قال بعلها: كان جدّي، قالت: وجدّي، وإن ذكر مبتدأً صالحاً، قالت: والخير عندي، وإن عدّتْ آباؤه الأعيان فهم آباؤها، وإذا طاب ثناؤه بسلفٍ فهو ثناءها، ومن إذا حسن بالطرد والعكس الابتهاج، جاءت إلى أهلها تحت أهلّة التاج، فلله هذا العقد الذي عدد قربى القرابتين).

ولا تنتهي الخطبة حتى تبيّن مزايا الخاطب وفضائله (فلئن شابهت العقود بهجت الورد فإنّ هذا هو النصيبي من الجهتين، فلا غرو أن تقول له العوالي الغوالي أرخص طيبك أيها العقد طيبي، وتناديه بالمعالي لقد سررتني، وتناديه بالمعالي لقد سررتني وكيف لا وأنت من الجهتين نصيبي، وإنما أشرف نور هذا القران السعيد وأشرق، وأعرب لسان حال قلمه فكان أفصح لسان المقال وأنطق،...).

فهذه الأسطر تفصح عن الرغبة المتبادلة بين الخاطب والمخطوب إليه، كما تشير إلى حسن الاختيار، وحسن الظنّ بالخاطب، لاسيّما إذا كان من ذوي القربى، فهم أعرف بمزاياه وطبائعه وفضائله.

(2) خُطبُ الأندية والمواسم:

من عادة هذه الخطب أن تلقى في المحافل والأندية؛ لضرورة يتطلبها موقف ما، ومن ذلك خطبة تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكي (ت 744هـ) التي ألقاها يوم عُيّن مدرساً بالمدرسة الركنية بمصر، وقد افتتح بها دروسه، وقد عدّها السبكي من الخطب الفائقة، فقال – بعد أن حمد الله وأثنى عليه – (أما بعد فإنّ غريب الدار، ولو نال مناط الثريا فيكفي أن يقال: غريب، وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ فما له في الراحة منهم نصيب، ولمشقّة الغربة ازدادت رتبة الهجرة في العبادة، وشرفت الوفاة حتى جاء موت الغريب شهادة، والغربة كربة ولو كانت بين الأقارب، ومفارقة الأوطان صعبة ولو عن سمّ العقارب، فأنّى يقاس ببلاد الغربة، وإن شرف قدرها، وعذب شرابها)[41].

ومن جيد خطب الموسم خطبة محمد بن أحمد المطري (ت 741هـ) وقد خطبها بمكة في موسم الحج، ومما جاء فيها: ((أيها الناس إنّ الله أصدق قائل، وأوثق كفيل، يدلكم إلى خير سبيل، وذلكم في محكم التنزيل على لسان الحبيب والخليل، فقال تبارك وتعالى: **(وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِي للطائِفِينَ والقائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُود * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحجِّ يَأْتُونَكَ رجالاً)**، [الحج: 26]، فاشكروا نعمة الله عليكم، وإحسانه العميم إليكم، وما منحكم به من حجّ بيته الحرام، وأداء مناسكه العظام، وزيارة نبيّه محمد – صلّى الله عليه وآله وسلّم – وابشروا بغفران الذنوب، ومحو السيئات))[42].

---

[40] ديوان ابن الوردي: 62.

[41] طبقات الشافعية: 180/9.

[42] مسالك الأبصار: 332/13—333.

إنّ من يتأمل هذا النص يجده لا يتضمّن وعظاً بالعزوف عن الدنيا، ولا تذكيراً بالموت، أو تخويفاً من وحشة القبر، وإنما ركّز الخطيب على فريضة حجّ بيت الله الحرام، وإنّ الله قد تكفّل لهذا البيت بأن يؤمّه من يشاء من عباده المسلمين؛ لأداء مناسك الحج، ثم طلب من معشر الحجاج أن يشكروا هذه النعمة التي أفاء الله بها عليهم وقد أتاح لهم أداء فريضة الحج لبيته الحرام، وزيارة قبر نبيّه المصطفى – صلّى الله عليه وآله وسلّم – وأنهى الخطيب خطبته بأن بعث في نفوسهم بريقاً من أمل حين بشرهم بغفران الذنوب، ومحو السيئات.

ثالثاً – الخطابة الجهادية (الحربية):

وهذه الخطب تلقى عادةً لإثارة الحماس، وإيقاظ الهمم، وبثّ روح العزيمة، والاستعداد في لقاء العدو، وعلى الرغم من كثرة الحروب التي شهدها هذا العصر فإنَّه لم يصل إلينا من خطب هذا اللون إلاّ خطبة واحدة، وتعدُّ من عيون الخطب، **هي** خطبة الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن الخليفة العباسي في مصر حيث خطب الناس في التاسع من المحرّم سنة 661هـ وعرّفهم فضل الجهاد وحضُّهم عليه، كما صور عظيم ما ارتكبه التتار من الجرائم من سفك الدماء، وسلب الأموال: (أيها الناس اعلموا أنّ الإمامة فرضٌ من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلاّ باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلاّ بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلاّ بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أهل الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال...)[43].

ثمّ ينتقلُ باستطراد رشيق، يحضُّ الناس على جهاد التتار، وإذكاء روح الحمية في نفوسهم، والاستبسال في قتال عدوهم؛ ابتغاء مرضاة الله، وإعلاء كلمة الدين:((فشمّروا ساق الاجتهاد، في إحياء فرض الجهاد **(فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ واسْمَعوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون)** [الحشر: 9]، فلم تبقَ معذرة في القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين،..... وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يردّ عنكم ما جرى، فالحرب سجالٌ، والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والآخرة للمؤمنين، جمع الله على التقوى أمركم، وأعزّ بالإيمان نصركم...)).

بهذه الكلمات المثيرة التي تلهب الحماس، وتثير العواطف استطاع الحاكم بأمر الله أن يحضُّ الناس على الجهاد، ويرغبهم فيه، ويهوِّن عليهم الأعداء الذين نعتهم: بأولياء الشيطان، وأنّهم لا يألون جّهداً في ترويع الناس وسفك الدماء، واستلاب الأموال، ولا سبيل في الخلاص منهم إلاّ باجتماع القلوب، ووحدة الصف، والإصرار على قتال التتار، واستئصال شأفتهم، والقضاء عليهم.

ومن كُلِّ ما تقدّم نجد أنَّ الخطابة في هذا العصر جاءت لتعبِّر عن ظواهر دينية واجتماعية ومواقف جهادية؛ لذا تعددت الموضوعات التي تناولتها .

المبحث الثالث

الدراسة الفنية

تطرّقنا في المبحث السابق إلى ضروب الخطابة، وما اشتملت عليه من أغراضٍ ومضامين، وكان لا بدّ لنا في هذا المبحث أن نتعرّف أهمّ الخصائص والسمات التي امتازت بها الخطابة في هذا العصر، وكان من بين هذه الخصائص والسمات:

أوّلاً . بناء الخطبة:

لا تختلف الخطبة – في هذا العصر – عن الخطبة في العصور التي سبقت هذا العصر من حيث طبيعة بنائها، وشدّة إحكامها، وكان من بين الأمور البنائية التي تتعلق بالخطبة:

[43] تنظر الخطبة في البداية والنهاية: 13/237–238، وحسن المحاضرة: 2/59–61.

(1) المقدمة:

إنّ ما يتعلق بأجزاء الخطبة هو عناية الخطيب بالمقدمة التي يفتتح بها كلامه، وغايته في ذلك أن يمهِّد لأفكاره، ويستثير انتباه السامعين فينقلهم من موقفٍ لآخر، لأنّ (الغرض منها تنبيه السامعين إلى موضوع الخطبة، وترغيبهم في الاستماع، وإعداد أذهانهم للاقتناع، واستجلاب خواطرهم، وتأليف قلوبهم حول الخطيب، وما يريد منهم)[44].

وقد جرت العادة (أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال فإنّ ذلك مما يزيّن الخطب عند مستمعيها، وتعظم به الفائدة فيها)[45].

إنَّ استهلال الخطب بعبارات التحميد والتمجيد تقليدٌ ورثه الخطباء عن الرسول الكريم – صلّى الله عليه وآله وسلّم – وألزموا أنفسهم به، حتى صار من (أوصاف الخطابة أن تفتح الخطبة بالتحميد والتمجيد.... فإنّ ذلك مما يزين الخُطب عند مستمعيها، وتعظم به الفائدة فيها؛ ولذلك يُسمُّون كلَّ خطبةٍ لا يذكر الله أولها البتراء)[46]، وإذا تأملنا المقدمات نجدها تتشابه كثيراً فيما بينها من حيث استهلال الخطب بعبارات التحميد والتمجيد، وقد أثر عن النبي محمد – صلّى الله عليه وآله وسلّم – (كُلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يفتح بذكر الله . عزّ وجل . فهو أبتر، أو قال: أقطع)[47]، ومن جيد المقدمات مقدمة زين الدين بن الوردي في خطبة نكاح: (الحمد لله الذي أطلع في منازل الشرف شمساً مصونة البهاء والضياء، وأبدع لشرف تاجه البديع درّة مكنونة في بحر الحبا والحياء، ومنحه عقد عقدٍ زان به جيد الوجود، وجمع الشمس والقمر في سعود الطالع وطالع السعود، نحمده على تأكيد عطف القربى بالمصاهرة، ونشكره على هذه الحركة الجامعة إن شاء الله تعالى خير الدنيا والآخرة، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة تجمع الشمل وتشمل الجمع، وتهدي أجمل منظر وأحسن حديث، إلى البصر والسمع، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المرسل بالشريعة المطهرّة والسنة الطولى، التي من استمسك بها ظفر بسعادة الآخرة والأولى، صلّى الله عليه وعلى إله وصحبه المحسنين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين))[48].

ويبدو بوضوح أن المقدمة تليق بالمعنى الوارد بعدها، وقد أردف الخطيب الحمدلة بالشهادة والصلاة على النبي – صلّى الله عليه وآله وسلّم – وهو مما يشوّق الحضور، ويحملهم على الإصغاء، كما جاءت المقدمة حافلة بالمحسنات البديعية؛ كالسجع، والموازنة والجناس...

(2) حسن التخلص:

وإذا فرغ الخطيب من المقدمة دخل إلى موضوعه، وهو الغرض الرئيس الذي من أجله ألف الخطيب خطبته (وأن يكون من الوضوح بحيث لا يفوت السامعين مزية الفهم والتتبع، ولا يسئمهم بالتعقيد والغموض، وأن يكون مؤدّياً إلى النتيجة المطلوبة)[49].

وأكثر خطباء هذا العصر يحفلون بالانتقال، وهو ما يطلق عليه بحسن التخلص، فالخطيب ينزع من المقدمة إلى بسط الموضوع، مع مراعاة ما يتناسب بينهما؛ لأنّ السامع حينئذٍ يكون مترقباً للانتقال من براعة الاستهلال إلى الغرض الرئيس بما يحرِّك من نشاطه، ويعينه على الإصغاء؛ وغالباً ما يتلو عبارات التحميد والتمجيد عبارة (أما بعد) ويؤتى بها

---

[44] الخطابة في عصر صدر الإسلام: 1/ 22.

[45] البرهان في وجوه البيان: 194.

[46] نقد النثر: 95.

[47] مسند الإمام أحمد بن حنبل: 2/ 359.

[48] ديوان ابن الوردي: 62.

[49] الخطابة في عصر صدر الإسلام: 26/1.

لفصل الخطاب، وإعداد السامعين إلى ما سيرد بعدها مباشرة، حيث (يبتديء بها كثير من الخطباء والكتاب كلامهم في خطبهم المحبّرة، ورسائلهم المحرّرة، كأنهم يستدعون بها إلى الإصغاء)[50].

ومن الخطب التي وردت فيها عبارة (أما بعد) خطبة تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكي (أما بعد فإن غريب الدار، ولو نال مناط الثريا فيكفي أن يقال: غريب، وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ، فما له في الراحة منهم نصيب....)[51]. وكذلك خطبة شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي: (وبعدُ، فإنَّ الرمي أفضل ما أُعدَّ للعِدى، وأكمل ما أفيضَ به على أهل الكفر رداء الردى..)[52].

وقد يأتي الخطيب بعبارة (أيها الناس) وينطق بهذه العبارة في المجامع الكبار والمحافل العظام؛ لأنها خطاب إلى الناس كافة، ومن ذلك خطبة ناصر الدين بن المنير الاسكندري (أيها الناس قصُر سعي من كانت خطاه معدودة، وخسر رأي من اتخذ هواه معبوده، وذاك ناصر من كانت الأيام جنوده، وقلّ حاصل من كانت الحطام موجودة)[53]. وكذلك خطبة شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (أيّها الناس إنّ الله عليكم نِعماً لا تعرفون لها قدراً، ولا تطيقون لمكافأتها حمداً ولا شكراً)[54].

(3) الخاتمة:

والخاتمة هي (آخرُ ما يعيه السمع، ويرتسم في النفس)[55] من الخطبة، وبها يدرك الخطيب مراده، والخطب التي وصلت إلينا من هذا العصر قد تعددت أشكالها وتنوّعت أغراضها، تبعاً لاختلاف موضوعات هذه الخطب، ومن أنواع الخواتيم:

(أ) الاستشهاد بالقرآن:

وقد يختم الخطيب خطبته بآيٍ من القرآن الكريم علن نحو ما ختم محمد بن خلف المطري خطبته بقوله تعالى فقابلوا رحمكم الله هذا الحرم بالتبجيل والتعظيم، فقد قال فيه السميع العليم: (وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِهِ بإلحادِ بظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم) [الحج: 25]، وكذلك خاتمة خطبة الحاكم بأمر الله الثاني أحمد بن المستكفي (ت 754هـ): (((**فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بما عاهَدَ عَلَيْهِ الله فَسَيُؤْتِهِ أجراً عَظِيماً**) [الفتح: 10]))[56].

(ب) الاستغفار:

وربما يُنهي الخطيب خطبته بالاستغفار لنفسه ولصالح المؤمنين على نحو ما جاء في خاتمة خطبة الحاكم بأمر الله (ت 701هـ): (واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم)[57].

(ج) الدعاء:

وقد يختم الخطيب خطبته بالدعاء لنفسه وللحاضرين، على نحو ما جاء في خاتمة خطبة يوسف بن سلمان النابلسي (جعلنا الله وإياكم ممن ينتهز الفرصة عند إمكانها، ويزجر نفسه عما تزيّنه وسوسة شيطانها)[58].

---

[50] سرح العيون: 25.

[51] طبقات الشافعية: 230/9.

[52] مسالك الأبصار: 367/13.

[53] مسالك الأبصار: 367/13.

[54] الجواهر والدرر (خ): ورقة 35.

[55] الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 598.

[56] حسن المحاضرة: 65/2.

[57] البداية والنهاية: 238/13.

[58] مسالك الأبصار: 338/13.

ثانياً . الأسلوب:

والأسلوب الخطابي . في هذا العصر . يجمع بين السهولة والركة؛ لفساد السلائق العربية، وما اعتورها من تشوهات لسانية، فضلاً عن جريهم وراء المحسنات البديعية التي بالغوا في طلبها، فجاءت خطبهم مثقلة بها، يغلب عليها طابع الصنعة والتكلّف، والخطيبُ المصقع ممن أوتي القدرة على التصرُّف في فنون القول هو الذي (يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيّته، غير مستكرهٍ لطبيعته، ولا متكلّفٍ ما ليس في وسعه)[59].

وأكثر خطباء هذا العصر يعنون بتدبيج خطبهم، والتأنُّق في صياغة أسلوبهم، وترتيب أفكارهم؛ لأنّهم أمام حشدٍ هائل، ربّما لا يسعفهم الخاطر، وقد يعرض لهم من الحصر ما لا قدرة لهم في مواصلة الكلام؛ لذلك يلجئون إلى تدبيج خطبهم وإعدادها إعداداً جيداً، وربما ذهب بعض من الخطباء إلى كتابة خطبته على الورق ثم يحضره ليقرؤها فيه أمام الناس، وهو دليل على عجزهم وعدم قدرتهم على حفظها واستظهارها؛ ونظراً لحاجة هؤلاء الخطباء إلى نماذج من الخطب يسلخونها من الكتب، ويقرءونها وينسخونها حين يحفظونها ويرّدونها فقد رأى بعض الخطباء ممن لا تزال في نفوسهم جذوة متقدة من الملكة الفطرية، أن يجمعوا خطباً مختلفة، يكتبونها وينمّقونها، ويراعون فيها متطلبات العصر، وحاجة الخطباء، ومدارك الناس، فتظهر على شكل كتاب أو ديوان، يستعين به غيرهم من الخطباء الذين يفتقرون إلى الملكة الخطابية، ومن هؤلاء الذين ظهرت لهم هذه المؤلفات: ابن المنير الطرابلسي (ت 683هـ)، وتقي الدين محمد بن علي بن دقيق العيد (ت 702هـ)، وإبراهيم النحاس خطيب جامع الأزهر (ت 814هـ)، وأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ) قاضي قضاة مصر، وزكريا بن محمد الأنصاري (ت 926هـ).

ومن يتأمل ما وصل إلينا من خطب هذا العصر فإنه لا يجد فيها من الألفاظ ما يصعبُ فهمها، أو يحوج إلى تفسيرها، فضلاً عن ابتعادها عن الغريب الذي لا يتكرّر في كلام العرب، وإن ورد كلامهم ورد مستهجناً[60].

ثالثاً – الموسيقى:

إنَّ من وسائل الصياغة والبناء الفني للخطبة عناية الخطيب بموسيقى عباراته للتأثير على مستمعيه، وجلب انتباههم؛ وما يحدثه الوقع والرنين من حركة انفجارية تغور في أعماق الفكر؛ لتحدث في النفس هذا التأثير القوي المتسق.

وتظهرُ عناية الخطيب بأسلوبه، وتأنّيه في إقامة موسيقى عباراته من خلال اختيار الألفاظ وتجانسها فيما بينها تجانساً صوتياً يكسبُها دفقاً إيقاعياً، ومن هنا فإنّ اختيار اللفظ وتنسيقه واستعماله بما يتلاءم مع غيره في السياق الذي وضع فيه له خاصيّة فنيّة، لأن (القيمة الذاتية للفظ تكتسبُ أهمّيتها من خلال اتساقها وتلاؤمها مع سائر الألفاظ فتكسبُ الكلام نغماً تهشُّ له النفوس)[61]؛ لهذا شغفَ العرب بموسيقى الألفاظ وجمال وقعها (وما الإعلال والإبدال والإدغام، وعدم جواز الابتداء بالساكن إلاّ مظهرٌ من مظاهر اهتمام العرب المفرط بجعل الكلمة وحدة منسجمة تخفُّ على اللسان، ويعذبُ وقعها في السمع، وكما شغفوا بموسيقى اللفظة واجتهدوا في تخليصها مما يفقدها التلاؤم أو التكافؤ بين حروفها وحركاتها كذلك حرصوا على موسيقى العبارات)[62].

ومن يتأمل خطب هذا العصر يجد أن أكثرها يتوافر لها ضروبٌ من القيم الصوتية المتناغمة التي تزيد النصّ موسيقى وجمالاً، منها:

---

[59] نقد النثر: 105.

[60] الموازنة: 259.

[61] جرس الألفاظ ودلالتها: 177.

[62] النقد اللغوي عند العرب: 293.

1) السجع:

مظهر من مظاهر الزخرفة اللفظية التي عنى بها الخطيب في هذا العصر، ويرادُ به (تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرفٍ واحد)[63]، والسجع يضفي على النص الذي يرد فيه قيمة موسيقية؛ بوصفه نوعاً من التنغيم، فهو يقوم أصلاً على تماثل إيقاعي في نهاية المقاطع، وتكرارها على نحو منتظم، ذلك إنّ المقاطع (تأتي على ألفاظٍ متوازنة متعادلة، وكلمات متوازية متماثلة)[64].

وخطباء هذا العصر يحبّذون السجع ويؤثرونه في خطبهم، ويأتون به تكلّفاً، ونزوع الخطباء إلى هذا الإيقاع المتناغم؛ لأنه سمة السجع الغالبة على نتاجهم الأدبي، وجوهره الفني الذي إليه النفوس أميل، والآذان لسماعه أنشط[65]، ومن ذلك قول يوسف بن سلمان النابلسي (ت775هـ) من خطبة له (فيا أيها الغافل عسى أن يكون قد اقترب أجلك، وقد أوهمك بعده أملك حتّى سوّد الصحائف عملك، كأنّك والله بأجلك قد حلّ، وبأملك قد ودّع فاستقلّ...)[66].

فهذه العبارات جميعها تنتهي بفواصل موحدّة، وهي عذبة سائغة تنسجم مع الطبع والذوق، وقد بناها الخطيب على السجع الذي يلذ الآذان حين تصغي إليه؛ لسهولته وخفّته وبراعته في صوغه حتّى لتتولى الخطبة مسجوعة على روي واحد، وقد أضفت جمالاً موسيقياً على النص لما فيها من حسن الإيقاع، وجمال الاتساق، وعذوبة الجرس.

ومن الأمثلة على السجع أيضاً قول ناصر الدين بن المنير الاسكندري للتدليل على ذلك (أيها الناس قصُر سعي من كانت خطاه معدودة، وخسر رأي من اتخذ هواه معبوده، وذاك ناصر من كانت الأيام جنوده، وقلّ حاصل من كانت الحطام موجودة؛ هي الدنيا فاستحقروا منها ما كثر، واستصغروا منها ما كبر، وجانبوها فقد عرفتم سوء الصحبة، وأرصدت لكم المنايا فراقبوها فإنها لكم على أهبة، فبينا أحدكم يرفل في اغتنام لذّته، ويغفل عن الحمام وأخذته، يخطرُ في سربالِه، ولا يخطر الموت بباله، إذ نبا بجنبه مضجعه، ودنا إلى ربّه مرجعه، ففتّ الوجع في أعضاده، وشتت الأجل شمل وداده، يطلبُ النوم فلا يجده، ويندب اليوم ما يسفر عنه غده، قد ألقى إلى التهلكة بيده، واستلقى منتظراً انتزاع روحه من جسده، واضعاً راحته فوق صدره وكبده، ضارعاً لفراقه من أهله وولده)[67].

فهذه الأسجاع المتوالية التي تبرز في هذه الفقر تنتهي جميعاً بفواصل موحدة، وإن بدت ظاهرة التكلف؛ فإننا لا نجدُ أثراً فيها لتكلُّفٍ ممجوج، أو ثقلٍ ظاهر؛ لأنّ الخطيب عرف كيف يستثمر هذا الفن بحسِّه المرهف، وذوقه الفنّي.

2) الجناس:

الجناس أحد فنون البديع الذي عرفته البلاغة العربية منذ عهدٍ مبكر، له دور مهم في إضفاء الإيقاع بنوعيه في السياق التركيبي، والجناس في أيسر تعاريفه هو (مجيء حروف ألفاظه من جنسٍ واحد، ومادة واحدة، ولا يشترط تماثل جميع الحرف بل يكفي في التماثل ما تقرب به المجانسة)[68].

والجناس من ضروب القيم الصوتية المتناغمة، فهو مظهرٌ من مظاهر الزخرفة اللفظية يرفدُ النصَّ الذي يردُ فيه بتجانسٍ موسيقي دقيق، بوصفه ضرباً (من ضروب التكرار المؤكد للنّغم من خلال التشابه الكُلِّي أو الجزئي في تركيب الألفاظ)[69].

---

[63] المثل السائر: 271/1.

[64] صبح الأعشى: 2/ 302.

[65] جرس الألفاظ: 246.

[66] مسالك الأبصار: 341/13.

[67] مسالك الأبصار: 367/13.

[68] جنان الجناس: 26.

[69] جرس الألفاظ ودلالتها: 284.

وأهمية الجناس تكمن في أنّه صورة من صور الألفاظ (إذا أتت منقادة للمعنى، كان لها وقعٌ لطيف بما تحمله من موسيقى وتجانس وانسجام، وهذه أمورٌ لها وزنها في التأثير والإثارة)[70].

وتظهرُ عنايةُ أكثر الخطباء – في هذا العصر – بالجناس بما يتحقَّق لديهم من دلالاتٍ وإيحاءاتٍ تسهمُ في خَلقِ أصداءٍ وأنغامٍ إضافية تسعى إلى الاستحواذ على أجزاء النص الذي تردُ فيه , فتترك أثر الاستحسان في نفس السامع، بما يمنح الفرصة في توليد موسيقى ظاهرية تتجلّى عبر هذه الألفاظ المكرّرة والموزونة؛ ولشدة ولوع بعضٍ منهم جاء نتاجهم مثقلاً به، إمعاناً منهم بالتكلف والتعمّل، وإسرافاً بالصنعة والصياغة اللفظية بما يفسد البلاغة ويطوى بهجتها، ويذهب برونقها.

ومن النصوص التي جاءت حافلة بالجناس قول عبد السلام بن أحمد بن غانم الأنصاري (ت 678هـ) من خطبةٍ له (يا جبريلُ، أكحل بالنوم أجفان من جفانا، فإنا لا نرضى لهوانا من رضي لنفسه هوانا، ولا يفوز بلقانا إلاّ من صرف وجهه تلقانا، فمن كان بالحبّة عَنانا أطلق في ميدان المحبّة عِنانا... ما ضرّه من فرّقه الشوق ألوانا، إذا ما حشر تحت لوانا، ولا ضلَّ من فتنة الوجد أفنانا، إذا ما انتهى إلى فنانا)[71].

لقد جانس الخطيب بين (ألوانا) التي هي بمعنى اللون، و (لوانا) التي هي بمعنى الراية، وهو من الجناس الناقص، كما جانس (أفنانا) التي جاءت بمعنى ألواناً وضروباً، و(فنانا) التي هي بمعنى الساحة.

فهذا الجناس الذي اكتنف النصّ وأخذ بمجامعه يزيدهُ موسيقى وإيقاعاً صوتياً متردّداً بين إيحاءات المعنيين مع ما يحدثه حرف النون المتكرر من نغمٍ إيقاعي متميّز، من حيث توافق نغمِهِ، وانسجام جرسِهِ فتغلبُ عليه رنَّةٌ موسيقية تطربُ لها النفس.

رابعاً– الخيال والصورة:

يعدُّ الخيال عنصراً مهماً من عناصر التعبير والتصوير، وبه يستطيع الخطباء أن ينفذوا إلى عقول السامعين، والخطيب المبدع الذي يكسو موضوعه الجاف لمحةً من الخيال فتزداد بساطته تأثيراً، ومن خلال النظر في النصوص التي بين أيدينا من خطب هذا نجد أن الخطباء قد استعانوا بالخيال في استمالة النفوس؛ لأنّ الخيال له القدرة على تأليف الصور، وإبراز المعاني في أساليب جديدة.

لقد استعان الخطباء بالصور البيانية في إثارة الخيال إثارة بعيدة، وبقدر ما يعنى الخطباء في انتقاء صور الخيال، ووصف المشاهد، الحسية، تبقى الصورة الحسية أقوى في دلالتها من صور الخيال؛ (لأنّ في التصوير الحسّي والتشبيه في المشاهدات انتقالاً من الأمور الذهنية الصرفة إلى العيان والنظر، وانصرافاً من القضايا العقلية المحضة إلى أنغام الحواس)[72]. ويمضي الخطيب في استنباط الصور وابتكارها معتمداً في ذلك على عنصر الخيال، ومن الصور التي تنطوي على جمال التعبير، ودقة التصوير قول زكريا بن محمد الأنصاري في زيادة نهر النيل: (فتصبح الأرض لجة بيضاء كأنها صرح ممرّد من قوارير)[73]، فهذه الصورة تعبر عن الخير والنماء، فقد نظر إلى الأرض وهي مزهرة معشبة مرتوية بماء النيل فانتزع لها صورة حسية وليدة خياله الخصب، هي صورة الصرح الذي انتظمت عليه القوارير، فظهرت للرائي من بعيد كأنها نبات مطلّ.

---

[70] عصر سلاطين المماليك: 6/ 397.

[71] ذيل مرآة الزمان: 14/4، وعيون التواريخ: 21/ 229.

[72] أصول البيان العربي: 167.

[73] التحفة العلية: 32.

وقول تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب (وحقّق في نفسك وطويّتك أنّك في الدنيا كعابر سبيل)[65]، فقد شبّه مكوث الإنسان في الدنيا بعابر سبيل في قصر مقامه، وقلّة مكثه.

ويسترسل الخطباء في استنباط الصور الناجمة عن خيالٍ متوثّب قول يوسف بن سلمان النابلسي (قد نُشرت علينا رحمة الرحمن، وبنشرها طويت يد الحرمان)[74].

لقد أوجد الخطيب في هذا النص علاقة تشابه بين الحرمان والإنسان حين أثبت للحرمان يداً على سبيل التخييل مبالغة في تشبيهه به من حيث القدرة في التصرُّف، ومعلوم أنّ تصرُّف الإنسان إنّما يكون باليد – في أكثر الأحيان . فاليد كالآلة التي تكمل بها القوّة على التصرُّف، ولمّا كان الغرض إثبات التصرُّف، وذلك مما لا يكمل إلاّ عند ثبوت اليد للحرمان تحقيقاً للغرض الذي به قوام الدلالة في الإنسان القادر على التصرُّف؛ وهو بذلك قد أخرج الحرمان عن طبيعته إلى طبيعة أخرى، هي الإنسان، وهي هنا استعارة تخييلية؛ لأنّه تخيّل اليد على جهة الاستعارة لا الاستعمال الحقيقي.

وقول تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب (فمزّق أثوابَ لهوك وغفلتك رداءُ عفوه الجميل)[75]. لقد أثبت الخطيب – من باب الاستعارة – أن للهو أثواباً، وللعفو رداءً، واستعماله رداء العفو لاشتماله على ما يحبُّه العاصي لغفران ذنبه، ومعلوم أنّه ليس هناك أمرٌ ثابت حسّاً أو عقلاً يجري اللهو والعفو عليهما، ولكنه لمّا شبّه اللهو بالإنسان أثبتَ له الثوب على سبيل التخييل مبالغة في تشبيهه به.

وقول ناصر الدين بن منير الاسكندري (وينزع عن الوافدين إليه أغلال القلوب، ويطهّر الطائفين به من كلّ دنس وعيب)[76]. فقد تخيّل القلوب رجلاً أسيراً، وأثبت له الأغلال على سبيل الاستعارة التخييلية؛ لأن القلوب إذا أعرضت عن ذكر الله تورث القسوة، فتصبح رهينة الذنب، حبيسة المعصية.

وقول الحاكم بأمر الله الأول (ت 701هـ) (فشمّروا عن ساق الاجتهاد، في إحياء فرض الجهاد)[77]، نرى أن الخطيب حين يريد تصوير الاجتهاد والجهاد فإنه ينتقي لهما صورتين جميلتين هما: صورة التشمير، وصورة الحياة، فقوله (فشمّروا عن ساق الاجتهاد) ليس للاجتهاد ساق على وجه الحقيقة، وإنما جسم الاجتهاد حين شبَّهه بإنسان له ساق، يتيح له أن يشمّر عن ساقه، فالخطيب قد شبّه الاجتهاد بإنسان له ساق على سبيل التخييل؛ حرصاً على التأهب والاستعداد والجد فيه، وفي عبارته الثانية (في إحياء فرض الجهاد) يعبر الخطيب عن فرض الجهاد بالميت وهو تعبير بالكناية، فعبَّر بالكناية عن هذا المعنى حين عمد إلى لازم من لوازمه.

ومن جميل الصور قول عبد السلام بن أحمد بن غانم الأنصاري (ت 678هـ) من خطبةٍ له: (ونثروا الدموع على الخدود فسالت غدراناً.. فلو رأيتهم وقد جنّ عليهم الليل لحسبتهم في ثياب الخشوع رهبانا)[78].

ومن صور الكناية قول تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب (لقد وعظك خطيب الأنام فما وجدك تفهم... غداً ترهب إذا طلع صبحك وشعشع)[79].

في هذا النص جملة من الكنايات، فقد عبَّر الخطيب بالكناية عن الموت. وممّا يلاحظ على هذا التعبير أنّ الخطيب لم يصرِّح بلفظ الموت، وإنّما ذكره رمزاً، كما عبرَّ بالكناية عن الشيب الذي علا مفرق الرأس.

---

[65] مسالك الأبصار: 370/13.

[74] المصدر نفسه: 338/3.

[75] المصدر نفسه: 370/13.

[76] المصدر نفسه: 333/13.

[77] البداية والنهاية: 238/13.

[78] ذيل مرآة الزمان: 14/4، عيون التواريخ: 228/21.

[79] مسالك الأبصار: 371/3.

رابعاً – البديع:

يعد العصر الوسيط من أكثر العصور التي شاع فيها استعمال البديع وفشا، وزادت موجة هذا الفن في هذا العصر حتى صارت طابعاً مميّزاً له، وهو ناجم عن تأثير اتساع الحضارة، وتنافس الأدباء فيما بينهم، فبرزت مهارتهم الفنية في استثمار هذا الفن البلاغي وتطويعه في شعرهم الذي جاء مثقلاً به.

لقد افتنَّ الأدباء من شعراء وكتّاب وخطباء بهذا الفن وأغرقوا في استعماله إغراقاً لا نظير له في أي عصر أدبي سبق هذا العصر، وهذا لا يدعوا إلى الغضّ أو التقليل من القيمة الفنية لنتاجهم الأدبي؛ لأنّ ولوعهم بالبديع أمر طبيعي، بل أصبح ضرورة من ضرورات التعبير الفني لديهم في هذا العصر، وهو يمثل طوراً من أطوار أساليبهم الأدبية التي تذوقوها وألفوها فصارت طابعاً مميّزاً لأدبهم.

ومن خلال استقراء النصوص الخطابية التي وصلت إلينا من هذا العصر نجد أنّ أكثرها يتوافر له ضروب من المحسنات البديعية: اللفظية والمعنوية، يأتي في مقدمتها السجع وقد تقدّم الكلام عليه.

وكذلك الطباق الذي يعتمد مكونه اللفظي الكيفية التي يخرج بها النسق التركيبي في كشف العلاقات الدلالية والانفتاح على المعاني، وهو (الجمع بين اللفظين الدالين على المعنيين المتضادين حقيقة أو تقريراً)[80]. ومن النصوص التي ورد فيها الطباق قول أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ) من خطبة في بيعة المستعين بالله الخليفة العباسي بمصر (والله يجعل انتقالهم من أدنى إلى أعلى، ومن يُسرى إلى يمنى، ويحقّ لهم...)[81]. لقد جمع في هذا النص بين ضدين مختلفين في المعنى (أدنى، أعلى، يُسرى، يمنى)، وبذلك تكون هذه المعطيات المتضادة أضاءت وهجاً دلالياً له علاقات إيقاعية تتناغم مع حركة النفس الداخلية التي ترنو شوقاً للوقوف على المعنى الباطن الذي يولّد المثير، ويحقّق الاستجابة عند المتلقي.

وقد يجنح الخطباء إلى المقابلة التي هي أعم من الطباق، كونها تضفي على النص جمالاً وحسناً، فضلاً عن روعتها في إفادة المعنى، ومداعبة مشاعر المتلقي من خلال التباين الدلالي المخزون في ألفاظها. والمقابلة هي (أن تضع معاني تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة فتأتي في الموافق بما وافق، وبالمخالف بما خالف)[82].

ومن النصوص التي وردت فيها حلية المقابلة قول يوسف بن سلمان النابلسي (فمن شكر فله شكره، ومن كفر فعليه كفره)[83]، وقول ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندري (هي الدنيا فاستحقروا منها ما كثر، واستصغروا منها ما كبر)[84].

وأكثر خطباء هذا العصر من الاقتباس؛ (لأنهم وجدوا فيه إقامة الحُجّة، وقطع النزاع، وإذعان الخصم، وقد تقوم الآية الواحدة المستشهد بها في بلوغ الغرض ما لا تقوم به الكتب المطوّلة، والأدلة القاطعة)[85]؛ لهذا مضى الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثّلاً وإشارة، ووضعها بالمواضع الملائمة لها من الخطبة، وصارت الخطبة التي تخلو من القرآن تعرف بالشوهاء[86]، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك (وكانوا يستحسنون أن يكون الكلام في الخطب يوم الحفل، وفي كلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع)[87]. وكان استشهادهم بالقرآن الكريم من وجهين:

---

[80] التبيان في البيان: 284.

[81] صبح الأعشى: 237/1.

[82] الصناعتين: 337.

[83] مسالك الأبصار: 338/13.

[84] المصدر نفسه: 367/13.

[85] إحكام صنعة الكلام: 169.

[86] البيان والتبيين: 118/1.

[87] المصدر نفسه: 73/4.

(1) النصّي:

وهو أن يقتبس المتكلّم شيئاً من القرآن الكريم وأن ينبّه عليه[88]، وهذا يعني أن يستشهد الخطيب بآية من القرآن مشيراً إليها، على نحو ما جاء في خطبة أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ) من خطبة له ((وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يضاعف لهم بحسن نيتهم الأجور، ويلجأون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليهم بقوله **(الّذينَ إنْ مكّنّاهُمْ في الأرض أقامُوا الصّلاةَ وآتَوُا الزّكاةَ وأمَرُوا بالمعروف وَنَهَوْا عنِ المُنْكرِ ولله عاقبةُ الأمُور)**[الحجّ: 41]))[89].

ومن ذلك قول محمد بن أحمد المطري (ت 741هـ) من خطبةٍ له: (أيها الناس إنّ الله أصدق قائل، وأوثق كفيل، يدلّكم إلى خير سبيل، وذلكم في محكم التنزيل، على لسان الحبيب والخليل، فقال تبارك وتعالى ((**وإذْ بَوَّأْنا لإبْراهِيمَ مَكان البَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ شَيْئاً وطهّرْ بَيْتي للطائفينَ والقَائِمينَ والرُّكّع السُّجُود وأذّنْ في النّاسِ بالحِجِّ يأتُوكَ رجالاً)** [الحج: 26]))[90].

وقول يوسف بن سلمان الطائي ((وجعل خير بقاع الأرض مجالس الجود، ومجال السجود، وأمر بتطهيرها للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، فقال تعالى **(إنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخر)** [التوبة:18]...))[91].

2- الإشاري:

وقد يؤثر الخطيب لفظ القرآن فيلجأ إلى اقتباس آية أو ألفاظ من القرآن الكريم فيجعلها ضمن ألفاظ نصوصه على وجهٍ لا يشعر به أحد، ولا ينبّه عليه أحد، وكأنه جزء من كلام الخطيب، كون (المقتبس منه ليس بقرآن حقيقة بل كلام يماثله، بدليل جواز النقل عن معناه الأصلي، وتغيير يسير فيه)[92].

ومن ذلك قول الحاكم بأمر الله الأول (فشمّروا ساق الاجتهاد، في إحياء فرض الجهاد **(فَاتّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ واسْمَعوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون)** [الحشر: 9]، فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين..)[93]. نجد الخطيب قد اقتبس الآية الكريمة من القرآن الكريم دون أن ينبّه المتلقي عليها، وقد أدرجها ضمن كلامه وكأنها جزء منه.

وكذلك قول شهاب الدين الحلبي في خطبة نكاح: ((اقتربت به الأباعد، واتصلت به الأنساب، اتصال العضد بالساعد، وأحيى الله به الأمم، وقد قضى حينهم، وجَمَعَ به بين متفرّقين **(لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّفَ بينهم.** [الأنفال: 63]))[94]. ومن الاقتباس الإشاري الذي تقتبس ألفاظه من القرآن الكريم قول جمال الدين الغزاوي: (وا أسفاً عليك أيّها المسكين، ما أغفلك أتتقاعد عن طاعة الله ما أمهنك وأكسلك، وتُسرع إلى المعاصي ما أعظم جرأتك وما أعجلك، أكفرتَ بالذي خلقك، فسوّاك فعدلك)[95] .

ومن يتأمل هذا النص يجد أن الخطيب قد اقتبس ألفاظه من الآية الكريمة **(يَا أيُّهَا الإنْسانُ مَا غرَّكَ بِرَبِّكَ الكرِيم الّذِي خلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)** [الانفطار: 6-7].

---

[88] صبح الأعشى: 234/1.

[89] المصدر نفسه: 237/1

[90] مسالك الأبصار: 13/ 333.

[91] المصدر نفسه: 336/13.

[92] أنوار الربيع: 217/2.

[93] البداية والنهاية: 238/13.

[94] حسن التوسل: 324.

[95] مسالك الأبصار: 373/13.

الخاتمة

ومن كلّ ما تقدّم يتّضح لنا:

1- أنّ الخطابة العربية في هذا العصر لم تدرك حظّها المرجو من الرقيّ والازدهار على نحو ما كانت عليه في عصر صدر الإسلام، وعصر بني أمية والعصر العباسي الأول، ولم تنشط من ضروب الخطابة سوى الخطابة الدينية التي ظلت محتفظة بعناصر بقائها ونموّها ونشاطها؛ لما تضمّنته من المواعظ والتذكير كالتمسك بالتقوى، والحضّ على العمل الصالح، والتحذير من الهوى والجري وراء الملذات؛ فضلاً عن كثرة الخطباء الوعاظ الذين عرفوا بقوة البيان، وما لهم من قدرة فائقة على الإلقاء والتأثير في نفوس السامعين.

2- إن ما وصل إلينا من خطب هذا العصر قلّة قليلة لا تتعدّى أن تكون خطباً دينية، وقسماً منها خطباً اجتماعية، إلاّ أن الخطابة الدينية لها النصيب الأوفر من الرقي والازدهار؛ لحاجة الناس إليها، ولما تضمّنته من مواعظ تذكر بالتقوى والعمل الصالح، والتخويف من وحشة القبر، وأهوال القيامة.

3- وكان مما شهده هذا العصر هو كثرة الخطباء المصاقع الذين زخرت كتب التاريخ والتراجم بأسمائهم، ممن تألّق نجمهم في هذا العصر، وإن كان أكثرهم من خطباء الجوامع.

4- تنوعت الموضوعات التي تضمّنتها خطب هذا العصر، كما تعددت أغراضها تبعاً للظروف والمناسبات التي تمرّ بالخطيب ويمرُّ بها.

5- والخطابة العربية في هذا العصر لا تختلف عن الخطابة في العصور التي سبقتها من حيث طبيعة بنائها وموضوعاتها. فقد عنى الخطيب ببناء خطبته عناية كبيرة، وقد تمّ له ذلك من خلال عنايته بصياغة أسلوبه من حيث اختيار الألفاظ ورصفها رصفاً جيداً، وتأنّيه في إقامة موسيقى جمله؛ فموسيقى الألفاظ لها القدرة على التأثير في نفوس السامعين، كما استعان الخطيب بالخيال في استمالة النفوس، لما للخيال من قدرة في تأليف الصور، وإبراز المعاني بأساليب جديدة.

المصادر والمراجع

- أحكام صنعة الكلام: لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي الأندلسي (أحد أعلام القرن السادس الهجري) تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1966م.
- أدب الخطابة الدينية في الدعوة الإسلامية: عبد الرحمن عيسى، دار الإيمان، بيروت، 1416هـ/ 1995م.
- أدب السياسة في العصر الأموي: الدكتور أحمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت (د. ت).
- أصول البيان العربي: د. محمد حسين الصغير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع: لصدر الدين علي بن أحمد بن محمد بن معصوم المدني (ت 1120هـ)، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1389هـ/ 1969م.
- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع: لأبي المعالي جمال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت 739هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الخامسة، 1400هـ/ 1980م.
- البداية والنهاية: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774هـ) تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرون، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت 1407هـ/ 1987م.

- البرهان في وجوه البيان: لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1387هـ / 1967م.
- البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت 255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1380هـ/ 1960م.
- التبيان في البيان: لشرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، (ت 743هـ)، تحقيق: د. توفيق الفيل، وعبد اللطيف لطف الله، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، 1406هـ / 1986م.
- التبر المسبوك في ذيل السلوك: لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 9002هـ)، تحقيق: د. لبيبة إبراهيم مصطفى، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ط1، القاهرة، 1424هـ/ 2003م.
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: للحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب (ت: 779هـ)، تحقيق: د. محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1976م.
- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: الدكتور ماهر مهدي هلال، دار الحرية للطباعة، بغداد 1980م.
- جنان الجناس في علم البديع: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ)، تحقيق: سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/ 1987م.
- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، مخطوطة بدار الكتب والوثائق المصرية، الرقم (4768 تاريخ).
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: لشهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي (ت 725هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، درا الحرية للطباعة، بغداد، 1980م.
- الخطابة الحفلية في العصر الأموي: حسين عبد العال اللهيبي، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة.
- الخطابة في عصر صدر الإسلام: الدكتور محمد طاهر درويش، دار الجيل، مصر، (د. ت).
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، ضبطه وصحّحه عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ / 1997م.
- ديوان ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر (ت 749هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1427هـ/ 2006م.
- ديوان صفي الدين الحلي، درا صادر، بيروت، 2006م.
- ذيل مرآة الزمان: لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني (726هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الدكن، الهند 1380هـ/ 1960م.
- زهر الآداب وثمر الألباب: لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني (453هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة 1972م.
- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: لأبي بكر جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري (ت 768هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المدني، القاهرة، 1383هـ / 1964م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت 395هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد: لأبي الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي (ت 748هـ) تحقيق: سعد محمد حسن، مطابع سجل العرب، بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى: لتاج الدين علي بن عبد الوهاب السبكي (ت 771هـ) تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (د. ت).

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي: محمود رزق سليم، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1381هـ/ 1962م.

- فن الخطابة: للدكتور أحمد محمد الحوفي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1949م.
- فوات الوفيات والذيل عليها: لمحمد بن شاكر الكتبي (ت 764هـ) تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1974م.
- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة: لنجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت 1061هـ) وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ / 1997م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت 637هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الحوفي، د. بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1379هـ/ 1959م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: لشهاب الدين أحمد بن يحيى، المعروف بابن فضل الله العمري (ت 749هـ) تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت،2010م.

مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت 241هـ): شرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1365هـ/ 1946م.

- مواد البيان: لعلي بن خلف الكاتب (أحد أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق: د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1982م.
- الموازنة بين أبي تمام والبحتري: للحسن بن بشر الآمدي (ت 370هـ)، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط3، 1378هـ / 1959م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، قدّم له وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1413هـ / 1992م.
- نقد النثر: لأبي الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي (ت 337هـ)، تحقيق: د. طه حسين، وعبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت 1402هـ/ 1982م.